

عمر "كبرياء قریش" ! للأستاذ أنور المعداوى

~~~~~



فيلسوف من فلاسفة الحكم .. ولا نمنى أنه كان من أصحاب المذاهب والنظريات ، أولئك الذين يضمرون للدولة نظاما فلسفيا تعمل به ، ومنهجيا مدروسا تدير عليه ، وفقا ليوهم الفكرية الخاصة في محيط السياسة والإدارة والاقتصاد

لم يكن عمر بن الخطاب واحدا من فلاسفة الحكم بمعنى هذه الفلسفة في العصر الحديث ، حين تفهم على أنها طريقة معينة لنظم الإدارة لا تصلح بغيرها الإدارة ، وخطة مفصلة لإقامة نوع من الحكومة لا تنجح بغيره الحكومة ، على نحو ما يفكر الفلاسفة الإداريون من أشياخ الفاشية أو الشيوعية أو الاشتراكية في هذه الأيام .. لم يكن واحدا من هؤلاء بهذا المعنى الفهموم ، وإنما كان واحدا من فلاسفة الحكم حين تكون الفلسفة خبرة بدخائل النفوس ، ودراية بأحوال الناس ، وبصرا بما تتجه إليه منهم شتى العواطف والنزعات ، وعلى هذه الأسس جميعا قامت فلسفة عمر الإدارية حين يرجى صلاح الأمور بين الحاكم والمحكوم هو فيلسوف بهذا المعنى الأخير إذا كانت الفلسفة فكرا صائبا يلمس مواطن الضعف في أخلاق الرعية ، ونظرا ثاقبا يلح مواضع الغلل في كيان الدولة ، ورأيا نافعا يقرن الصرامة بالعدل وهو يواجه المرض وسمل جميته فنون من السلاج

ولا نريد هنا أن نعرض لمختلف الجوانب في فلسفة عمر

الحكومية فهي متعددة المالم متنوعة الأهداف ، ولكن القى نريده من هذه الكلمة هو جانب واحد يدل به المثل الفرد على غيره من الأمثال .. هذا الجانب الواحد الذى يصور لنا الطائفة العمرية في تصريف الأمور ، بما عرف عنها من عبقرية القائد وحكمة الحاكم وكياسة المدير . هناك في مواقفه الحازمة من كبرياء قریش ، أو من تلك الأرستقراطية القرشية التى لم يهذب من جموحها إنسانية محمد ولا سماحة الصديق

أمد كان عمر يعلم من أسر قریش ما قد يملحه غيره من الناس . وليس في هذا العلم بطبيعة الطواهر النفسية ما يهرأ أو يروع حين يقف العقل بملحه عند هذا الحد ولا يزيد ، لأنه قسطن مشترك من المرفة قد يتساوى فيه كل صاحب حظ من الألمية أو كل صاحب قدر من الذكاء .. ولكن امتياز عمر في هذا المجال يتمثل في تحطى المنظور إلى ما وراء المنظور ، وانتقال الوعى من رؤية العيش إلى رؤية الفكر ، واحتشاد العقل لتفسير الطواهر النفسية في ضوء ما يصحبها من أعمال وما يعقبها من أحداث !

هنا يتركز امتياز عمر ؛ فهو يعرف عن قریش أمورا لا تخفى على أمثاله من البصراء : يعرف عنها تلك الكبرياء الموروثة عن مكانها في الجاهلية ، ويعرف عنها هذا الصلف المكتسب من سيادتها في الإسلام ، ومن هاتين الزاويتين قدر كل ما يمكن أن تنسم به الأرستقراطية القرشية من أسباب الزهو ومظاهر الخيلاء . لقد كان هذا الحى من أحياء العرب هو صاحب الكلمة الأولى قبل أن يظهر في الأفق محمد . كان له المجد الذى يأتى من عزة الدنيا وزعامة الدين : فهو القائم على مناصك الحج يستأثر بها من دون العرب جميعا ، ويتسلط بها من دون العرب جميعا ، على القبائل كافة . ويستمد من هذه السلطة الدينية كل منابع القوة والرفعة والتفوق على غيره من الأحياء .. وهو صاحب التجارة الضخمة والمال الوفير ، وما يتبعهما من سمة الشهرة ونفاذ الكلمة ودافع السيطرة والثلبة والافتحام . كان له هذا كله قبل أن تسطع أضواء الرسالة المحمدية في سماء الجزيرة العربية ، وحين سطعت هذه الأضواء كان لقریش حق آخر لا يزاحها فيه مزاحم ولا يجادلها فيه إنسان ، وهو شرف الانتساب إلى محمد الزعيم وشرف القرابة من محمد الرسول ..

بالحجل وما جعله يطالب الصفح من الرسول ولبتلمس الغفو من عمارا  
ولكن هل رجع خالد عن طبعه وهل عدل عن سيرته بمد  
وفاة الرسول ؟ إن سماحة الصديق بعد إنسانية محمد ، لم تستطع أن  
تخفف من حدة تلك الغلواء القرشية أو توقف من اندفاعها في  
طريق .. وها هو التاريخ ينقل إلينا موقف خالد بن الوليد من  
مالك بن نويرة حين قتله بغير حق ليتزوج من امرأته الحنفاء .  
وها هو ينقل إلينا مرة أخرى كيف ثار عمر من أعماقه على هذا  
المعمل الذي لا يقره العدل ولا يرضاه الضمير ، وكيف خذله أبو  
بكر حين طلب إليه أن يعزل ابن الوليد حتى لا يكون قدوة سيئة  
لن من تحت إمرته من قواد المسلمين . لقد كان أبو بكر رجلا سمح  
النفس لين المربكة موطأ الأكتاف يعمل بهدى محمد ، وما دام  
محمد في رأيه قد وضع خلافا على رأس الجيش ثقة بقدرته واعترافا  
بمكانته ، فلا يحق لابن أبي قحافة أن يخرج على تلك الثقة الغالية  
فيعزل قائدا رضى عنه الرسول .. ويسكت ابن الخطاب على مضمض  
ويسرها في نفسه إلى حين !

كان عمر كما قلت لك يعرف من أمر قريش ماقد يعرفه غيره  
من الناس ، ولكنه كحاكم فيلسوف خبير طبائع النفوس ، كان  
يدرك أن قريشا كالأطفال المدلل لا تنفع معه كلمات الزجر ولا تحول  
دون رعايته ألفاظ التأنيب ، وإنما يصلح أمره بالحكم الحازم  
واللقاء الصارم ، و« الدرة » التي لا تفرق حين تململ الرءوس بين  
كبير وصغير . كان يخشى الفتنة وينشد العدل ويطمح في مرضاة  
الله ، وكانت الفتنة التي يخشاها هي ما يعرفه عن قريش من حب  
للسيطرة ورغبة في الاستعلاء ، وطموح لا يقف عند حد في سبيل  
فرض السكامة على غيرها من الناس . وأي فتنة أشد خطرا وأبعد  
أثرا من أن تلقى الأرسطوقراطية القرشية شعار الدعوة ودستور  
الإسلام : وهما لا يفضل لربي على محمي إلا بالتقوى ، وأن أكرم الناس  
عند الله أنقام ؟ إن الإسلام لم يعترف بفضل غير فضل الجهاد ،  
ولا بمنزلة غير منزلة التقوى ، ولا بجاه غير جاه الدين ، ولا بسلطان  
غير سلطان العدل والمساواة .. فإذا كانت قريش لا تريد أن  
تعتز إلا بمنزتها في الجاهلية ومكانتها في الإسلام وقرابتها من  
الرسول ، فهذه هي الفتنة التي كان يخشاها عمر ويقدر مواقفها في

وحسبها من هاتين الناحيتين أن تغلو وتغمر في الغلو ، وأن تطمح  
وتتسرف في الطمع ، وأن تستطع وتفرق في الطموح ؛ ولا عجب  
إن تعادت الأرسطوقراطية القرشية فيما ورثته من معاني الصاف  
ومعالم الكبرياء ، ولا عجب أيضا إن مضت في طريقها جامعة  
لا بكاد يهذب من جوهرها إنسانية محمد ولا سماحة الصديق !

نعم ، لم يهذب من جوهرها هذا الذي قلناه . وإنما لرمز  
للأرسطوقراطية القرشية في عهد النبي وأبي بكر بمنزل واحد هو  
خالد بن الوليد .. لقد كان خالد مثلا صادقا ووجها سافرا لتلك  
الأرسطوقراطية المتميزة بالألوان من الفطرسية والاستعلاء ، راعل  
ما كان يثير من غلوائه أنه كان واحدا من قريش ، يفتس من  
أجنادها بمحمد ثم يضيف إليه مجد القائد المظفر لجيوش المسلمين .  
وكل هذا قد دفع ابن الوليد إلى شيء من الازدراء للتعبير وإلى  
أشياء من الزهو عليه ، كأن يكون هذا المزدري رجلا كعمار بن  
يامر على سبيل المثال .. عمار الذي اتى في سبيل الدعوة من صنوف  
الذل وضروب الهوان بالم بلغة إنسان ، عمار الذي عاش مجاهدا  
ومات شهيدا وعطر صفحات التاريخ بعداد التضحية وسطور  
الفداء ؛ عمار هذا يخاصمه خالد في حياة محمد ثم ينسج جهاده في  
سبيل الله وفضله في نصرة الإسلام ، ولا يذكر له غير شيء واحد  
وهو يغلظ في القول وبشدة في الخصومة ، لا يذكر لمار غير أن  
أمه « سمية » كانت أمة من إماء مخزوم ، وأن أباه « يامرا » كان  
عتيقا من عتقاء مخزوم ، وهي حتى من أحياء قريش كان من نصيبه  
خالد بن الوليد .. ومعنى هذا كله في منطق الأرسطوقراطية القرشية  
أن المبيد لا يحق لهم أن يرضوا الرءوس أمام السادة !!

وينطلق عمار إلى الرسول ليحتكم إليه شاكيا ابن الوليد ،  
ويقبل خالد في موكب من كبريائه القرشية ليواجه عمارا أمام النبي  
بمنزل ما واجهه به ، فيصمت عمار ويطرق محمد .. وحين تنهى  
الأرسطوقراطية المتعالية من تهجمها على ابن يامر وابن سمية ، يرفع  
رأسه الرسول الكريم وينطق الإنسان العظيم ، ينطق بشارته  
الحالدة خلود الحق ، الباقية بقاء العدل ، الراسخة رسوخ اليقين :  
« من عادى عمارا فقد عاداني » .. قالها محمد ولم يزد ، ولكن  
المباراة المرحزة كان فيها من الزجر ، وكان فيها من الردع ، وكان  
فيها من التأنيب والتثريب ، كان فيها من هذا كله ما أثمر خلافا

سلطان الله لا يهابك ١١

ويقص علينا التاريخ مرة ثالثة وما أكثر ما يروى لنا التاريخ من أنباء عمر ، يقص علينا أن عبد الرحمن بن عوف قد أقبل يوما على الجبار العادل ومعه فتى من بنيته قد لبس قميصا من حرير ، فينظر إليه عمر غاضبا ويقول له : ما هذا الذى أراه يا ابن عوف ؟ لباس من حرير وابن الخطاب قائم على أمر هذه الأمة ؟ ثم يدخل يده فى جيب القميص فيشقّه إلى أسفله . . ويقول له عبد الرحمن وقد أذهلته المفاجأة : ألم تعلم أن رسول الله (ص) قد أذن لى فى لبس الحرير ؟ فيجيب عمر مصدقا له منكرا لمن عدا : بلى الحكمة شكرتها .. أما لبنيك فلا ١١

وهكذا كان عمر حيال الأرستقراطية القرشية . يريد أن يسوى بين قريش وبين غيرها من العرب فى كل شأن من شؤون الحياة ، فلا فضل ولا تفوق ولا امتياز ، ولا شئ يمكن أن يفرق بين الناس فى مظهر من المظاهر ولا فى قيمة من القيم ولا فى حق من الحقوق . ولهذا أداردفة الحكم كما سبق أن قلت ، بما عرف عنه من عبقرية القائد وحسنة الحاكم وكياسة المدير . وبقيت حقيقة تقف من هذه المقدمات المادية موقف النتيجة النفسية ، وهى أن تلك الكبرياء المقهورة فى نفوس قريش قد تنفست الصعداء بموت عمر ، فانطلقت فى عهد عثمان كانتطلق الأسود الدجينة قد أفلتت من قبضة السجان . ووقعت الفتنة التى كان يخشاها الحاكم الفيلسوف ، وهى أن يخلى بين قريش وبين ما تطمح فيه من سيطرة على العرب ، وما تطمح إليه من تحكم فى رقاب الناس ؛ وقعت الفتنة التى أودت بعثمان فيما أودت به من استقرار الأمور فى جيل من بعده أجيال . وبالحال من نتيجة طيمنية تلك التى ترتبت على انقضاء عهد كان فيه ابن الخطاب كما صورناه : الدرة فى يمينه تأديب وتهذيب ، والسكامة على لسانه تشريع وقانون يادرة عمر ، إن لك مكانا فى التاريخ . . ويا عدل عمر ، إن لك مكانا عند الله ١١

أنور المعداوى

نشتيت الشمل وتفريق الكلمة وتصدع البناء . ومن هنا وقف ابن الخطاب فى وجهها بكل ما أوتى من حزم الحساکم وحكمة الفيلسوف : الدرة فى يمينه تأديب وتهذيب ، والسكامة على لسانه تشريع وقانون ١١

بهذه الفلسفة الحاكمة وبمد وفاة أبى بكر ، واجه عمر كبرياء السادة من قريش . عزل خالدا من القيادة والمرکة دائرة ليضع فى مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، لأنه لم ينس لأن الوليد تلك الهفوة التى أقدم عليها يوما مطمئنا إلى سماحة الصديق ، وحتى لا يكون كما سبق أن قلت قدوة سيئة لمن هم تحت إمرته من فواد المسلمين ، ولعله قد أراد أن يكبح جماحه ليكون عبرة لأمثاله من الجامعين . ولم يكتف بهذا بل أخذ يراقبه ليقضى على البقية الباقية فيه من زهو الكبرياء القرشية ، وليجمل منها آخر الأمر قوة منهوكة لا تكاد تؤمر حتى تطيع . ويقص علينا التاريخ أن عمر دخل المسجد ذات يوم فوقعت عيناه على خالد وقد رشق فى قلنسوته عددا من السهام ، مختالا كما يختال بريشه النفوش كل طاووس من الطواويس . . وتعدد بين عمر بالدرة ليلعوا رأس هذا الطائر المختال ، وتعدد شماله لتتزع السهام ملقبة بها إلى خارج المسجد دون أن يسمع كلمة اعتراض ، ويهتف الجبار العادل فى صرخة خالدة : إن الله لا يحب كل مختال فخور ، وإن ترهق قريش وفى ابن الخطاب عرق ينبض ١١

ويقص علينا التاريخ مرة أخرى أن عمر كان قد حدد يوما ليقسم فيه الثنائى على المسلمين ، وحين أقبل اليوم المرتقب تجتمع الناس من حوله وازدحموا عليه ، حتى لم يبق مكان لقدم . ونظر عمر إلى رجل يدفع الناس بمنكبيه ويشق طريقه فى عنف حتى بلغ موضعه من الطليعة ، وكان هذا الرجل هو سعد بن أبى وقاص ، سعد الذى كان أول من رى بهم فى سبيل الله ، والذى فداء النبى بأبويه يوم أحد ، والذى رأى مقبلا ذات يوم فأشار إليه وقال لمن حوله : هذا خالى . سعد هذا رأى عمر يزاحم الناس يوم تقسيم الثنائى فلم يكن منه إلا أن علاه بالدرة وهو يصرخ فى وجهه : لم تهب سلطان الله فى الأرض فأردت أن أعلمك أن